المحاضرة الخامسة

أولاً_ الأندلس:

يقول غوستاف لوبون: «وعرب الأندلس وحدهم، هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد، وذلك في تلك الزاوية الصغيرة من الغرب، العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة، ونذكر منهم جربرت الذي صار بابا في سنة 999م باسم سلفستر الثاني، والذي أراد أن ينشر في أوروبة ما تعلمه فعد الناس عمله من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان»[i].

وقد تعددت الوسائط والقنوات التي تم من خلالها نقل الثقافة العربية والإسلامية من الأندلس إلى أوروبة. وكان من أهمها: المستعربون واليهود والمدجنون، إضافة إلى الوفود والبعثات، وحركة الترجمة، وفيما يلي عرض موجز لهذه الوسائل والقنوات:

أ- المستعربون: وهم نصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم، وكان العرب يسمونهم بعجم الذمة، أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين.

وقد كان المستعربون يمارسون في الأندلس أشغالاً علمية وعملية مختلفة، ربما أهّلت بعضهم إلى أن يصبحوا من ذوي النفوذ، وكان السواد الأعظم منهم يقيم في قرطبة وإشبيلية، وأكثرهم في طليطلة، إذ كانت عاصمة القوط القديمة والحاضرة الدينية لشبه الجزيرة الإيبيرية، كما أنهم درجوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن، وإن كان ذلك لم يمنعهم من مخالطة السكان.

والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية كانوا أداة اتصال بين شطري إسبانية، ومنذ الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية لم ينقطعوا عن الهجرة إلى الأراضي المسيحية، وقد كثر ذلك في عهد المرابطين (484 - 520هـ- 1091 - 1134م) والموحدين (520 - 620 هـ- 1134 - 1223م)، فهاجر سكان بلنسية منها إلى قتشالة سنة 1102م - 496هـ، وخرجت طائفة كبيرة منهم من غرناطة تبلغ عشرة آلاف مع جيس ألفونس الأول ملك أرغون إبان حملته سنة 1125م - 519هـ التي اجتاح فيها بلاد الإسلام حتى أدرك قرطبة وإشبيلية، وخرجت طائفة أخرى من إشبيلية إلى قشتالة سنة 1146م - 541هـ، وكان من شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الثقافة الإسلامية والعربية بين أهل الشمال من المسيحيين.

وقد أهّلت معرفة المستعربين باللغتين العربية واللاتينية أن يقوموا بدور المترجمين والسفراء بين حكام الأندلس وبين نصارى الشمال. ويذكر «جنثالث بالنثيا» في هذا الصدد أن الأسقف «ريكيموندو» أو رسيسموند الذي يسميه العرب «ربيع بن زيد الأسقف» كان سفيراً لعبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ- 912- 961م) لدى «هوتو» إمبراطور ألمانية. ولا شك في أن هذه السفارات كانت إحدى القنوات التي عبرت من خلالها الثقافة العربية والإسلامية إلى إسبانية النصرانية[ii].

ويوجد كتاب مهم لأحد المستعربين يدل على وجود هذا التأثير وهو كتاب «ملحمة السيد» الملقب بالقنبيطور (أو قميطور) (أو الكنبيطور)، ومعناه يساوي كلمة: المبارز العربية، واسمه الحقيقي «رودريجو دياث دي بيبار». ويذهب الدكتور الطاهر مكي في دراسته لهذه الملحمة إلى أنها تأثرت بالثقافة العربية لا في حدود الألفاظ والتعابير اللغوية وحدها، وإنما أيضاً في النظم والتقاليد الإسلامية، كتقسيم الغنائم وفقاً للشريعة الإسلامية، وطريقة القتال ودفع الدية في حالات القتل الخطأ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة الإسلامية، إضافة إلى ما في بعض قصص هذه الملحمة مما هو من أصل عربي أكيد، كما في قصص «ألف ليلة وليلة» وغيرها من الحكايات الشعبية.

هذا وقد اهتم الباحث الإسباني خوسيه ماريا مياس بييكروسا بدراسة اهتمام المستعربين في الأندلس بالعلم، وأوضح أن الثقافة اللاتينية كانت حتى القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي بعيدة عن النشاط العلمي في الأندلس، و لم يكن لأصحابها علم واسع بالحساب أو الرياضة كالعرب، وما كانوا يعرفونه في هذا المجال لا يعدو إلا أن يكون جهوداً أولية بجانب ما ظهر عند مسلمي الأندلس في ذلك الوقت، ولذلك فليس من الغريب أن يحمل مستعربو الأندلس هذا العلم إلى ممالك أرغونة وليون وكونتية برشلونة [iii].

ب – اليهود: أما اليهود فقد كان نشاطهم مؤثرا وكبيراً في نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وإسبانية النصرانية في جميع مجالات الحياة، سواء كانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية، وذلك لأنهم كانوا يجيدون – بالإضافة إلى اللغة العبرية – اللغتين العربية واللاتينية. وكان منهم التجار والحرفيون والمترجمون، وشاركوا في مناصب الدولة فكان منهم الوزراء والكتّاب والسفراء، ونبغ عدد كبير منهم في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والموسيقى.

وقد نزل جماعة من اليهود ببلاط وليم النورماندي في إنجلترا (عام 1066م) فاحتفى بوجودهم، وكان لهم إسهام بارز في إنشاء مدرسة أكسفورد، حيث سخّروا علومهم ومعارفهم التي اقتبسوها من مسلمي الأندلس في تنظيم المناهج والدروس العلمية في تلك المدرسة، وفي هذه المدرسة تلقى «روجر بيكون» الثقافة العربية ونهل من علوم العرب التي هدته إلى أهمية المنهج التجريبي في العلوم.

أما عن أبرز مترجمي اليهود في إسبانية فيأتي في مقدمتهم – في القرن الثاني عشر الميلادي- السادس الهجري – إبراهام برحيا هانسي، والذي ظهر في برشلونة، وأسهمت ترجماته وتآليفه في نقل التراث العلمي العربي إلى أوروبة. ونبغ منهم أيضاً في ميدان الترجمة إبراهيم ابن عزرا، الذي وُلد في طليطلة (197م)، و ترجم شرح أحمد بن المثنى بن عبد الكريم على زيج الخوارزمي البغدادي (ت 236هـ)، وألّف رسالة في الحساب يعرض فيها كيفية العمل بالأرقام العربية والصفر.

وبرز منهم في القرن الثالث عشر الميلادي- السابع الهجري: يعقوب بن أبا ماري، وكان أول من ترجم كتب ابن رشد (ت 595هـ) إلى العبرية.

وموسى بن طبون، الذي ترجم (30) كتاباً من العربية إلى العبرية في مرسيليا (1283م)، من أهمها: كتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس، والقانون وأرجوزة في الحميات لابن سينا (ت 428هـ)، والترياق للرازي (ت 320هـ)، وثلاثة مؤلفات لابن ميمون (ت 600هـ)، والشروح الصغرى على

كتب أرسطو لابن رشد (ت 595هـ)، وزاد المسافر لابن الجزار (ت 369هـ)، والعمل بالكرة ذات الكرسي لقسطا بن لوقا (ت ق 4هـ)، وكتاب الزرقالي (ت480هـ) في العمل بالصفيحة، وكتاب ابن الهيثم (ت 430هـ) في هيئة العالم، وكتاب ابن الصفار (ت ق5 هـ) في العمل بالإسطرلاب، وغير ذلك من الكتب.

ومن مشاهير المترجمين اليهود: موسى الأربوبي، وليفي بن جرسون (1344م)، ويهوذا بن سلمان الحريزي، وهذا الأخير وُلد بالأندلس، ثم ارتحل إلى شمالها، حيث توفر على دراسة الثقافة العربية، ثم نبغ في ميدان الترجمة، ونشط في ترجمة كثير من الكتب العربية إلى العبرية، فكان يتجول في شمال إسبانية وجنوب فرنسة، فترجم مقامات الحريري (ت 515هـ) من العربية إلى العبرية، وأدب الفلاسفة لإسحق بن حنين (ت 298هـ) ودلالة الحائرين لموسى بن ميمون (ت 600 هـ) [iv].

وقد أدى اليهود دورهم في نقل التأثيرات الحضارية بين مسلمي الأندلس ونصارى شمال إسبانية وجنوب فرنسة، وكانوا حلقة من حلقات الاتصال بين الجانبين[v].

ج – المدجنون: ولا يمكن تصور التأثير الإسلامي في إسبانية النصرانية إلا بمعرفة الدور الذي قامت به الجماعات الإسلامية في البيئة المسيحية، فقد مثّلت صورة حية للإسلام بنظمه وتقاليده وثقافته. وقد أُطلق على تلك الجماعات التي كانت تعيش في حماية الدولة المسيحية نتيجة لحروب الاسترداد المستمرة اسم: المدجنين، وهم المسلمون الذين أقاموا في الأراضي المستردة[vi].

ثانياً_ صقلية وجنوب إيطالية:

حكم العرب صقلية قرابة ثلاثة قرون من القرن 9-11م، وعندما استولى النورمان عليها تأثروا بالحضارة العربية، فكان روجر الثاني (1130-1154م) ملك صقلية معجباً بالحضارة العربية، وقد ألف له الإدريسي كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، كما صنع له كرة أرضية من الفضة، وفي عهد ابنه روجر نظمت حركة الترجمة عن العربية وقد ضم بلاطه عدداً من المترجمين لكتب الطب والفلك ومنهم جيرار الكريمون الذي ترجم المجسطي من العربية إلى اللاتينية، وقد ترك العرب في صقلية قصوراً ومساجد ومصانع للورق والنسيج الحريري، واتخذ النورمان من كل ذلك قدوة لصناعاتهم. أما أول رائد لحركة الترجمة في جنوب إيطالية فقد كان تاجراً تونسي الأصل، اهتم بالطب وزار سوريا والعراق والهند ثم أبحر إلى جنوب إيطالية حاملاً معه شحنة من المخطوطات، ودخل سلك الرهبنة وأطلق على نفسه اسم قسطنطين الأفريقي عام 1087م، ثم اعتكف في دير قرب بالرمو وانكب على ترجمة الكتب إلى اللاتينية، وكان عمله هذا أساساً لمدرسة ساليرنو في الطب والتي اتجهت إلى دراسة الطب المغربي[vii].

لقد ظهرت أيد أخذت على عاتقها التمثل بالشكل العربي وإناطة أمر الإشراف على قضايا الصحة العمومية في أوروبة بجماعة مفتوحة الصدر لرغبات المرضى، ومتحررة من المعتقدات الخاطئة كلها.

وكانت صقلية مسرحاً لأول مقابلة حاسمة في هذا المعنى بين ما حققه العرب في هذا الميدان وبين الغرب، فبعد مئتين وخمسين سنة من السيطرة العربية على تلك الجزيرة أصبح أمر اعتناء الدولة بالصحة العامة حقاً مكتسباً لدى جماهير الشعب. ولما جاء النورمانديون، وعلى رأسهم ملكهم روجر الثاني، صادق على هذا الحق، وأصدر قانوناً في عام 1140م يقضي بامتحان الأطباء، قبل إعطائهم الترخيص،

تماماً كما فعل من قبله بزمان طويل الخليفة المقتدر بالله في بغداد، «حتى لا تصبح سلامة رعايانا في خطر بسبب جهل في المعالجة».

وفي عام 1231 و1240م أكد الإمبراطور فردريك الثاني على تنظيم العرب لسلكي الأطباء والصيادلة بقوانينه التي أصدرها، وقد جاءت فيها إعادة حرفية لتعليمات الملك روجر عن امتحان الأطباء على أيدي أساتذة ساليرنو، كما فيها، كذلك، تأكيد على مدة الدراسة البالغة ثماني سنوات، وعلى ضرورة مناقشة الأطروحة بحضرته شخصياً، وقد فرّق أيضاً بين مهنتي الطبيب والصيدلي، وكما كان عند العرب، كذلك كان هناك تفتيش على الصيادلة وتحضير الأدوية....

لقد كانت هذه الإجراءات ــ بالنسبة إلى بقية البلدان الأوروبية ــ شيئاً غير مقبول، لأن الكنيسة قد رأت في ذلك تهديداً مباشراً لمصالحها، وكيف لا ترى هذا، وقد أصبح حل هذا الموضوع وربطه منوطاً بالدولة في شخص رئيسها، فالأطباء والصيادلة يقسمون اليمين أمام الإمبراطور ولا يعملون إلا بترخيص منه، تماماً كما تعمل البيمارستانات والصيدليات بإشرافه. ولم ير البابا غريغوريوس التاسع بداً من إصدار تحذير علني صريح للإمبراطور يحذره فيه: ألا يشتط في أعماله، فيعتدي على حقوق الكنيسة.

ومع ذلك فقد صارت قوانين فردريك الثاني ــ فيما بعد ــ هي القوانين المعمول بها في البلاد الأوروبية، وكانت بمثابة الخطوة الأولى نحو العصر الحديث بعد ليل العصور الوسطى المدلهم. وهكذا نجد أن رأس الجسر الذي انتقل بالطب وصناعة الصيدلة من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، كان من صنع العرب في القرنين الثامن والتاسع الميلادي، ذلك، أن البلاد الأوروبية الكائنة في شمال جبال الألب لم تعرف الصيدليات بمفهومها العربي والحديث إلا بعد وقت طويل، وما كلمة أبوتيكا (Apotheea) التي كانت تتردد بين حين وآخر في المخطوطات القديمة، إلا مرادفاً لدكان حوى كل شيء، ولم تدرج هذه الكلمة بمعناها الحقيقي إلا فيما بعد[viii].

وبعد احتلال جزيرة صقلية ظهرت حاجة النورمانديين لأسطول يحميها كما كانت الحال أيام العرب، وكان من الطبيعي أن تكون بالرمو المدينة البحرية والعاصمة، هي مركز الأسطول، وأن يختار أميرها أميراً أي أدميرالاً، وفي حكم روجر الثاني كان منصب الأدميرال هو أعلى مناصب الدولة، وكان أول من تولى هذا المنصب ليس قائداً من قواد السفن النورماندية القدامي، بل رجلاً عربياً هو عبد الرحمن النصراني الذي تسمى باسم إغريقي كاثوليكي هو كريستودولوس، والذي قاد الأسطول والمشاة أيام حكم والد روجر، فأضاف روجر الثاني إلى مهامه وظيفة كبير القضاة.

وارتفعت مكانة الأدميرال الثاني في مملكه النورمانيين، وكان هو الآخر عربياً يدعى جورج الأنطاكي الذي أوتي موهبة في الإدارة والشؤون العالية جعلته في صدر شبابه وزيراً، وكان الوزير الفتى الذي يهوى المغامرة ويجيد أكثر من حرفه قد عرض خدماته على بلاط النورمانديين بعد وفاة سيده خشية من نيات الحاكم الجديد، ورغبة منه في الهرب من وجهه، ولقد وجد روجر الثاني في جورج ذاك الرجل المغامر الذي تحتاج إليه دولته. ولقد لاقى جورج في بالرمو نجاحاً مماثلاً للنجاح الذي لاقاه وهو فتى مغامر في صدر شبابه، فعهد إليه عبد الرحمن النصراني، في أول الأمر، شؤون الإدارة، ولكن موهبته السياسية والمالية التي ظهرت جلية في بعثته الموفقة إلى سلطات مصر، زادت إعجاب روجر به، فعهد إليه بقيادة

مجموعة من سفن الأسطول، و لم يلبث جورج أن تولى رئاسة الأسطول كله متخطياً كل أقرانه، وقد لاقت البحرية على يد جورج الذي لم يلبث أن أصبح أمير أمراء البحر، عدة إصلاحات وتنظيمات توخى فيها النظام العربي المنبع آنذاك مما جعلها سلاحاً قوياً استطاع أن يغزو به شمالي إفريقية ويحتل أهم موانئها التي عمل فيها في صدر شبابه.

إن هذا العربي الماهر، الذي قدم لدولة النورمانديين هذه الخدمات الجليلة، صار من أقرب المقربين إلى الملك، فطوال أربعين عاماً خدمها بإخلاص احتضنه الملك أكثر من أي واحد آخر من رجال بلاطه، وذلك لتزاهته وشخصيته الممتازة وحسن تقديره للمسؤولية. فنراه يتحدث عنه مثلاً في عام 1132م ويسميه «بالشخصية الأولى في المملكة كلها»، وعندما وافاه أجله بعد ذلك العام بعشرين سنة لم يتمالك الناس، حتى من كانوا يعادونه، من أن يقولوا: «لن يجد ملك صقلية من يسد الفراغ الذي تركه موت ذلك الرجل العظيم».

ألا تحمل مثل تلك الصداقة التي ربطت ملك صقلية برجال ممتازين من العرب، ولمسه لمقدرتهم الفذة وثقافتهم الواسعة وتقديره لرجولتهم وشهامتهم، على أن يحب العرب عامة ويجلهم؟ لقد حدث هذا بالفعل فكان العرب دائمي التردد على الملك، يناقشهم ويستفيد من علمهم ويتخذ من علمائهم وشعرائهم جلساء له ويشجعهم على ترجمة الكتب العربية والإغريقية المعربة، بل وينضم إلى جانب العرب حين تحدث منازعات بينهم وبين المسيحيين. وقد كتب عنه المؤرخ العربي ابن الأثير قائلاً: «وأكرم المسلمين، وقرّبهم ومنع عنهم الفرنج، فأحبوه».

لقد أحبه العرب من قلوبهم، فعند وفاة أكبر أولاده، أظهر العرب حزنهم الشديد عليه ورثاه شعراؤهم، بل إن سيدات الأسر العربية لبسن السواد وتركن شعورهن حزناً على وفاته، والتففن حول القصر ناحبات، وسارت خادماتهن في الشوارع ترتلن مقطوعات الرثا. لقد رسم العرب لروجر صورة خالدة، إن هذه اللوحة تنطق بحبهم له كمؤسس للدولة ومشرع ومحب للعلوم والرياضيات والجغرافية وعاشق للفنون.

والفضل يرجع للعرب في جعلهم من روجر الثاني أغنى ملك في أوروبة يوم كان أصغر ملوكها، لقد وفقوا في ذلك بقدرتهم الفائقة على فلاحة الأرض ومهارتهم المتوارثة ونظامهم المالي الضرائبي الدقيق الذي أخذه عنهم، كما اتبع نظامهم الإداري والقانوني، وتدفقت على دولته الخيرات من شمالي إفريقية التي ضمها إلى أملاكه أمير أمراء البحر جورج في حملة موفقة خاطفة، والتي تركها روجر بتسامحه المعروف تحت إدارة سكانها المحليين، فالفضل كل الفضل يعود لذلك العربي الشجاع الذي وسّع رقعة أملاكه ونفوذه، وجعله يزهو باسم: «ملك صقلية وإيطالية وشمالي إفريقية»[ix].

وبسقوط باليرمو في عام 1072م على أيدي النورمان الذين أنهوا سلطان المسلمين واكتملت سيطرتهم على صقلية، ثم حكموا بعد ذلك ومن تلاهم من الهوهنستوفيين صقلية وجنوب إيطالية حتى عام 1250م. وفي عام 1224م أسس الأمير الهوهنستوفي جامعة نابولي، وجلب إلى مدرسة قصره في صقلية علماء من المسلمين واليهود والمسيحيين ليتكفلوا بترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية (في صقلية أيضاً

ظهرت لأول مرة في ذلك الوقت مدرسة الشعراء الإيطاليين)، وفي عام 1227م ضم إلى بلاطه ميخائيل الأسكتلندي باعتباره من أشهر العلماء المعروفين آنذاك[x].

وكانت مدرسة ساليرنو الشهيرة في إيطالية الجنوبية مركزاً للدراسات الطبية على منوال كبريات المدارس العربية المعاصرة، فقد كان مغاربة صقلية قد أنشؤوا جامعة في بالرمو، وكانت المدينة تتباهى بأطبائها الكبار الذين كانوا يتمتعون بشهرة عالمية واسعة.

ففي القرن الحادي عشر الميلادي، كان مديرها الرئيس، قسطنطين الأفريقي، تونسي الأصل، قد غادر إفريقية بعد أربع سنوات من الدراسة، ثم كرس نفسه كلياً لكي ينقل إلى اللاتينية كتباً طبية، في ساليرنو أولاً، ثم في الرهبنة البنديكتية في مونت كاسان، حيث توفي سنة 1087. وكان قسطنطين الإفريقي قد استخلص من كل العلماء المشاهير كل ما كان من شأنه أن يفيد طبياً في مزاولة مهنته، وبذلك يستحق أن يلقب «مصلح الأدبيات الطبية في الغرب»[xi].

رابعاً _ الحروب الفرنجية الصليبية:

كان القرن الثاني عشر الميلادي هو الأهم في نقل مظاهر وعناصر الحركة العلمية من «دار الإسلام» إلى أوروبة، لأن هذا القرن شهد مرحلة الحروب الصليبية، فخلال هذه الحروب حصلت عملية تماس إجباري، على مستوى واسع، بين المجتمع العربي الإسلامي من جهة، وحشود من الأوروبيين الغزاة من جهة ثانية، وقد حصل هذا التماس في بلاد الشام بالذات حيث أنشأ الصليبيون إمارات أوروبية مستقلة في كل من الرها، وأنطاكية، وطرابلس الشام، ومملكة مسيحية في القدس، وبالرغم من حالة العداء التي كانت تفرض العديد من المعارك والمناوشات الحربية، فقد قامت علاقات واقعية بين الطرفين، وخاصة في أوقات المهادنة، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعلمي، وقد كان ما أخذه الصليبيون عنا في هذه المرحلة أكثر بكثير مما أخذناه عنهم.

وكان من جملة ما أخذوه نظامنا العلمي والتعليمي، وخاصة فيما يتعلق بمهنة الطب، وكيفية تدريسها، وإجازة الأطباء، وطرق العلاج، والمؤسسات العلاجية (البيمارستانات).

ويقول مؤرخ الطب المعروف الدكتور لوسيان لوكليرك في رصد هذه الظاهرة: «هناك تفكيران عصفا بأوروبة في القرن الثاني عشر: الأول ديني متعصب دفع الأوروبيين للقيام بالحروب الصليبية، والثاني متعطش للعلم دفعهم للتفتيش عن منابعه لدى العرب المسلمين، وهذان التياران سارا بالتوازي إلى أقاصي العالم الإسلامي».

ونحن، من جهتنا، إذا كنا نحترم هذا القول وصحته وحسن نية قائله، فإننا نرى أن هذين التيارين لم يسيرا بالتوازي – كما يقول لوكليرك – وإنما تبع أحدهما الآخر، أو بالأحرى خلق أحدهما الآخر، حيث إن الحملات الصليبية الأولى فتحت عيون العالم الأوروبي على كنوز الحضارة الإسلامية، وخلقت لديه نهماً علمياً للحصول على مثيل لها أو تقليدها، وليس هذا الأمر ظاهرة فريدة في التاريخ إذ إنه في جميع الحروب التي يتصارع فيها شعبان مختلفان في درجة الحضارة، فإن الشعب الأقل حضارة يأخذ من الشعب الأكثر حضارة منه، وسواء أكان هذا الأخير منتصراً أو مهزوماً.

وهكذا يمكننا القول إنه إذا كان القرن الحادي عشر الميلادي قد شهد انتقال بعض مظاهر الحركة العلمية العربية إلى أوروبة عبر بوابتي الأندلس وجنوبي إيطالية، فإن القرن الثاني عشر الميلادي، الذي حصلت فيه الحملات الصليبية الأولى وإنشاء الممالك والإمارات الصليبية، شهد عملية انتقال مشابهة عن طريق ثغور بلاد الشام المحتلة (أنطاكية، طرابلس، بيروت، صور، عكا، عسقلان...)[xii].

أما ما يذهب إليه عدد من الباحثين إلى أن الحروب الصليبية كانت ضعيفة الأثر في الاتصال الفكري بين العالمين الشرقي العربي والغربي الأوروبي، وأن الأوروبيين لم يفيدوا كثيراً من التقائهم بالعرب أثناء هذه الحروب، فلعل ذلك يرجع إلى أن نقل العلوم من أمة إلى أخرى لا يتم إلا أن يكون بين الأمم تقارب في مستوى الثقافة ونوعها، ولم يكن عند الصليبيين قدر كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية.

ويضاف إلى ذلك عامل آخر، وهو أن الصليبيين قصدوا الأراضي المقدسة للحرب لا لطلب العلم، وامتازت حياتهم في سوريا بما تتصف به حياة الجنود عادة من خشونة، فلا هم لهم إلا تحصين مواقعهم والدفاع عن كيانهم والإبقاء على معاقلهم التي أقاموها في الشام وسط محيط إسلامي واسع، ولم تخف وطأة الحرب بينهم وبين المسلمين إلا بجلائهم نهائياً عن سوريا سنة 1291م، وإذا حدث أن توقفت الحرب بين الفريقين فترات قليلة من الزمن فإنها كانت تتوقف لتستأنف بعد قليل، وهكذا لم تتح للصليبيين في الشرق حياة الاستقرار الضرورية لمباشرة النشاط الفكري والحضاري، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمي بالعرب كما أتيحت لإخوانهم الأوروبيين في صقلية والأندلس.

لكن ينبغي أن نشير إلى أن الصليبيين وإن كانت استفادتهم من علوم العرب والمسلمين أقل مما يجب، لأن الجيوش الصليبية جاهلة ولم تكن تبالي بالمعارف كما يقول غوستاف لوبون، فإنهم اقتبسوا من الحضارة الإسلامية في ميدان العمران والصناعة والنظم الاجتماعية والسياسية أكثر منها في ميدان الفكر والفن، واقتبسوا الشورى وتحرير العبيد وحقوق المرأة والعلاقات الدولية وأمثالها[xiii].

وقد غذّت الحملات الصليبية النشاط الاقتصادي والتجاري في أنحاء منطقة البحر الأبيض المتوسط[xiv]. وإن أهم فائدة رجع بها الصليبيون إلى بلدانهم بعد هزائمهم العسكرية، كانت أن أطلعوا على أوج حضارة العرب المسلمين في العلوم والفنون والعمارة، فاقتبسوا الكثير من أساليب الحياة المعروفة كأساليب بناء القلاع والحصون، وقد شيدت القصور في فرنسة في القرن الرابع عشر الميلادي على ذلك الطراز.

كما أخذوا عنهم صناعة الورق واستخدام البوصلة والإسطرلاب وآلات الرصد وأشياء أخرى عفى عليها الزمان وانتحلها كثير من علماء الغرب، وما لبث الزمن أن كشف حقيقة أصحاب تلك الكتب والآلات والمخترعات، وتم إعادة الحق إلى أصحابه على أيدي مواطني هؤلاء القوم، مما يدلنا على أن هؤلاء الغربيين ما زال فيهم من لم تنتزعه العنصرية لتجعله يدور في فلكها، بل حملته الأمانة العلمية أن ينسب الفضل إلى صاحب الفضل، مما أدى بهؤلاء العلماء أن يعترفوا بأن مجمل الحضارة الغربية إنما قامت على أكتاف الحضارة العربية وليس في ذلك ما يعيب[xv].

وكان للحروب الصليبية دور مهم في تطور بناء الحصون وطرق الدفاع في ألمانية وبورجندية وفي بناء قصور الإنجليز وتحصينات الفرنسيين، وكان أبرز تلك الطرق الدفاعية في الحصون الممرات المسقوفة التي تقلل من خطر أي هجوم، والمزاغل البارزة التي تمكن من الحركة الجانبية مثلها مثل أبراج السور. وتلقف الغرب بسرور بالغ اختراعاً عربياً آخر من عصر الجاهلية وهو بناء نوع من الشرفات يمكن من خلال ثقوب منتظمة في قعره صب الزيت أو القطران المغلي على أجساد الجنود المحاصرين للقلعة.

وأخذ فرسان الحروب الصليبية عن الشرق عادته في تغطية الأبراج بخوذ من الصخور، ونشاهد ذلك في حصن لآرنا في بلجيكا، وحصن رودل في ألمانية. وحماسة فرسان الحروب الصليبية في فورمز لكل ما هو شرقي، دفعتهم لتغطية أبراج كنيسة القديس بولس بتلك الخوذ الحجرية ونُحت في داخلها رسماً لسفينة الحروب الصليبية. وعلى الرغم من عدم إمكان رؤية جمال تلك الخوذ لشموخها عالياً وسط سماء دائمة التلبد بالغيوم، فإنهم لم يكفوا عن تقليدها في بقية أنحاء ألمانية.

وفي الموضوع نفسه اتخذت أبراج كنائس عصر النهضة في إيطالية شكلها عن المآذن الإسلامية، كما استطاع أورن مهندس المباني الإنجليزي أن يقتبس عنها أشكال الأبراج والقباب الشهيرة التي بناها. كما اتخذ عصر النهضة أشكال القواقع للزخرفة كما كان شائعاً في المساجد والمآذن[xvi].

ولقد نقل الأوروبيون عنا أيضاً، في هذه المرحلة، كثيراً من العلوم والمؤسسات العلمية والأنظمة التعليمية، وذلك عبر عمليات التماس التي كانت تحدث بشكل شبه يومي بين الطرفين، وهذا التماس مكن عدداً كبيراً من الأوروبيين من تعلم اللغة العربية وإجادتها، وهذا ما أهّل هؤلاء للبدء بحركة ترجمة متنامية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية أولاً، ثم إلى غيرها من اللغات – وخاصة الألمانية والإيطالية والفرنسية – بعد ذلك.

وعلى سبيل المثال يمكننا القول إن كلاً من أنطاكية وطرابلس الشام، قد عرفا، خلال فترة الحكم الصليبي لهما، حركة ترجمة نشيطة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، وكان أهم المترجمين في المدينة الأولى إيتيين الأنطاكي، الذي ترجم في عام 1127م كتاب «الكامل في الصناعة» أي «الكتاب الملكي» لعلي بن العباس الأهوازي، وذلك تحت عنوان Regalis disposito. أما في طرابلس فقد ظهر فيها فيليب الطرابلسي: Philippe De Tripoli، الذي ترجم كتاب «سر الأسرار Secret Secretorum» لأرسطو إلى اللغة اللاتينية، ولكن ليس عن لغته الأصلية وهي اليونانية، وإنما عن ترجمة عربية له تحمل عنوان: «كتاب السياسة في تدبير الرئاسة»، وبهذا يمكن التأكيد على صحة الرأي القائل بأنه لولا الترجمات العربية لما تمكن العلماء والفلاسفة الأوروبيون في القرن الوسطى – وعلى

رأسهم القديس توماس الأكويني – من الاطلاع على كتب الفلسفة اليونانية، وخاصة كتب أرسطو[xvii].

سابعاً _ الجامعات الأوروبية:

ليس من قبيل الصدفة أن نرى أعرق الجامعات الأوروبية تنشأ في هذا القرن بالذات، سواء أكان ذلك في فرنسة، أو إيطالية، أو ألمانية ... .

وظهور هذه الجامعات أمر مهم، لأن حركة التطور العلمي ابتداءً من تاريخ ظهورها، أصبحت بتأثير العوامل الداخلية و لم تعد بحاجة لعوامل خارجية تأتيها من بلاد الشام أو من الأندلس، وإن بقيت هناك حاجة لاستكمال بعض الجوانب فإن هذه الجامعات كفيلة بتأمين ذلك. وانطلاقاً من هذا الأمر يبدو لنا أنه لا بد من الكلام عن بعض هذه الجامعات ودورها في استكمال العلوم والمعارف الطبية العربية.

ونبدأ بجامعة مونبلييه: تقع مدينة مونبلييه في جنوب فرنسة، على الطريق الواصل بين بلاد الأندلس وإيطالية من جهة، وعلى مفرق الطرق المتجه نحو الشمال، نحو العاصمة باريس، من جهة ثانية، وقد أهّلها موقعها هذا لتكون أولى الجامعات التي تنشأ في فرنسة.

و لم يمر وقت طويل على هذه الجامعة حتى استقطبت العديد من الطلاب الفرنسيين والأجانب، حتى بلغ عدد طلابها حوالي عشرين ألفاً.

وقد حوت هذه الجامعة كلية الطب التي تأثرت بشكل عميق بمؤلفات الطب العربي وأساتذته، فمؤلفات الطب العربي المترجمة إلى اللغة اللاتينية كانت تأتيها من (مدرسة طليطلة) في الأندلس، وأساتذة الطب الذين تعلموا الطب العربي ومارسوه كانوا يفدون إليها من (مدرسة ساليرنو) الإيطالية، ويغذونها بعلمهم وبأبحاثهم، وكذلك عن طريق الأطباء الفرنسيين العائدين من مرافقة الجيوش في الحروب الصليبية.

وقد آتى كل هذا أكله فساعد على تقدم هذه الجامعة علمياً بشكل جعل أبرز العلماء والأطباء يتنافسون للتدريس فيها، ومن هؤلاء على سبيل الذكر:

– بطرس الإسباني: هو راهب إسباني كان طبيباً ثم أصبح أستاذاً في هذه الجامعة، وبعد ذلك صار أحد البابوات، باسم «سيلفستر الثاني»، وكان يجيد العربية قراءة وكتابة.

– هنري ده موندفيل: الذي كان أستاذاً للجراحة في هذه الجامعة، وقد ألّف كتاباً بعنوان «التشريح والجراحة» اقتبس كثيراً من مواده عن العرب.

– أرنوده فيلانوفا: وهو طبيب مستعرب، عاش بين 1235م و131م، وقد درس الطب في مدرسة ساليرنو ودرّسه في جامعة مونبلييه، وقد مكّنته إجادته للعربية من أن يترجم الفصل الأخير الخاص بالقلب من كتاب «القانون» لابن سينا، وبحث «الغذاء» من كتاب ابن زهر الأندلسي، وقد جاءت آراؤه كلها في الأمراض مقتبسة عن المؤلفين العرب.

– و لم يقتصر الأمر في ترجمة المؤلفات الطبية على أساتذة الجامعة فقط، من أمثال أرنوده فيلانوفا، وإنما امتد إلى المترجمين المحترفين أيضاً، وأهمهم اليهود الأندلسيين، مثل «شيم توف» – أو سام توب – الذي كان يعمل في مرسيليا، و«فرج بن سالم» الذي كان يوقع باللاتينية باسم Ferraguth وأحياناً

Serragius، والذي ترجم طائفة من أمهات الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية، ولعل أهمها كتاب «تقويم الأبدان» لابن جزلة، الذي ترجمه تحت عنوان: «Tacuimi aegritudinum» وذلك في عام 1270م.

وما حدث في جامعة مونبلييه حدث ما يماثله في بقية الجامعات الأوروبية، مثل جامعتي ليون وباريس في فرنسة، وجامعتي لايبزيغ وتوبنجن في ألمانية، وجامعة أوكسفورد في بريطانيا.

وفي بعض الحالات قام خريجون من جامعة مونبلييه بنقل المعارف الطبية العربية إلى الجامعات الأخرى التي يعملون بها، وهذا ما حدث مثلاً في جامعة أوكسفورد، إذ إن الطبيب المعروف باسم: «برنارد الأسكتلندي»، والذي درس في جامعة مونبلييه بين 1285م و1307م، عمم الطب العربي في بريطانيا، وذلك عبر الكتاب الذي ألّفه بعد عودته إليها بعنوان: «زنبقة الطب».

وكذلك فعل من بعده الطبيب جون أوف جادسدن (John of Gadsden) (1280م - 1361م)، حيث درس الطب أولاً في جامعة مونبلييه، ثم عاد بعدها إلى بريطانيا حيث عمل أستاذاً في كلية «ميرتون» الطبية التابعة لجامعة أوكسفورد، وقد ألّف فيها كتاباً لتدريس الطب تحت عنوان «الوردة الإنجليزية، Rosa Anglica»، وقد استند في أغلب معطياته على الطبين العربي واليوناني.

وفي القرن الرابع عشر استقر عالم ألماني اسمه «هيرمان» في طليطلة، ونسخ خلال فترة إقامته عدداً كبيراً من المخطوطات الطبية العربية، ثم نقلها إلى ألمانية. وخلال هذا القرن برزت جامعات أوروبية جديدة مثل (جامعة لوفان) في بلجيكا، و(جامعة بال) في سويسرة. وقد هيمن على هذا القرن وجه طبيب فرنسي مارس الجراحة على الطريقة العربية فأصبح أمهر جراح في أوروبة، ألا وهو: جي ده شولياك الذي عاش بين سنتي 1300م و1367م.

وقد عمل هذا الجرَّاح كأستاذ في جامعة مونبلييه، ثم في جامعة ليون، وكطبيب خاص لبابوات مدينة أفينيون، وقد ألَّف في هذه المدينة الأخيرة كتاباً مهماً في الجراحة يحمل عنوان: «التشريح الكبير» باللغة اللاتينية طبعاً، وقد أحدث هذا الكتاب، فور صدوره عام 1343م، اهتماماً كبيراً، ومصداقية واسعة، بشكل جعل منه المرجع الأساسي لتدريس الجراحة في أغلب الجامعات الأوروبية طيلة ثلاثين قرن تقريباً. وقد اعترف هذا الطبيب الجراح، في كتابه هذا، بفضل الأطباء العرب، إلى درجة أنه كرر اسم أبي القاسم (الزهراوي) فيه أكثر من مئتي مرة، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على المدى الذي وصل إليه علم الزهراوي في التقدم والانتشار.

وتعددت في القرن الخامس عشر الجامعات الأوروبية وتعمقت، وبدأت تعتمد على مؤلفات جهازها التعليمي الخاص بها، ولكن هذا لم يمنع من متابعة الاعتماد على أمهات المراجع الطبية العربية، وهكذا ظل كتاب ابن سينا المادة الأساسية للدراسة الطبية في جامعات لايبزيغ وتوبنجن في القرن الخامس عشر الميلادي، وجامعات فيينا وفرانكفورت في القرن السادس عشر الميلادي. بل إن بعض الكتب العربية امتد الاعتماد عليها في جامعات أوروبية أخرى – مثل جامعة لوفان البلجيكية – حتى عام 1617م.

وعموماً يمكن القول: إن المراجع الطبية العربية بقيت هي المعول عليها أساساً في كثير من الجامعات الأوروبية حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي، وقد كانت في موقع متفوق على

المراجع اليونانية واللاتينية [xviii].

وقد حدث في هذا القرن (القرن الخامس عشر الميلادي) أمر مهم آخر كان ذا علاقة هامة في نشر الثقافة العلمية، من طبية وغيرها، في أوروبة، وهو اختراع الطباعة في عام 1448م، حيث لم يعد هناك حاجة للنسخ اليدوي للمخطوطات وإنما أصبح من الممكن طبعها بمئات، بل آلاف، النسخ وتعميمها على طالبيها لقراءتها والاستفادة منها.

وبهذا الشكل تم نشر عدد كبير من المؤلفات الطبية العربية باللغة اللاتينية، إما عن طريق ترجمتها وطبعها معاً، وإما عن طريق طبع الترجمات السابقة لها.

والمثال على الحالة الأولى ما قام به الطبيب الإيطالي فاللا، عندما ترجم ونشر رسالة الرازي عن الجدري والحصبة في مدينة البندقية عام 1492م، وكذلك ما فعله طبيب إيطالي آخر، وهو آلباجوس حيث ترجم ونشر كتاب «شرح تشريح القانون»، في مدينة البندقية عام 1547م.

والمثال على الحالة الثانية قيام ناشر إيطالي، في مدينة البندقية أيضاً، في عام 1552م، بنشر مخطوطة ترجمة كتاب «التيسير» لابن زهر، وهي ترجمة كان قد قام بها الراهب باتافينوس في الأندلس عام 1280م.

وما جرى في البندقية جرى في المدن والعواصم الأوروبية الأخرى، حيث بدأت بطبع أمهات الكتب الطبية العربية، والنهل من محتوياتها، منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وحتى أواخر القرن قبل الماضي [xix].

ولا بد أن نذكر ولو تلميحاً أمراً يرتبط بموضوع الجامعات ويكمله، وهو قضية انتقال التراث المكتبي الإسلامي إلى الغرب، ففي الوقت الذي كانت فيه المكتبات العربية الإسلامية تعد بالألوف، وخزائن أي منها يتجاوز عدد المخطوطات فيها مئات الألوف، كانت المكتبات في العالم الأوروبي، تكاد تقتصر على الأديرة، كما كانت معظم هذه الكتب تبحث في علم اللاهوت، وهي مدونات لاتينية، لا يطلع عليها غير الرهبان. وتعد مكتبة كاتدارئية مدينة كونستانز، أكبر مكتبة في أوروبة في العصر الوسيط، وكان عدد كتبها لا يزيد على 354 كتاباً، ومعظمها كتب دينية. أما مكتبة دير البندكتيين فكانت تشتمل على نحو مئة كتاب عام 1032م. ويقال إن ملك فرنسة شارل الخامس المعروف بالحكيم، عندما أراد أن يؤسس مكتبة في أواخر القرن الرابع عشر للميلاد، لم يستطيع أن يجمع في المكتبة الملكية أكثر من 900 مجلد، وكان قسم اللاهوت فيها، يشتمل على ما يزيد عن ثلث مخطوطاتها [xx].